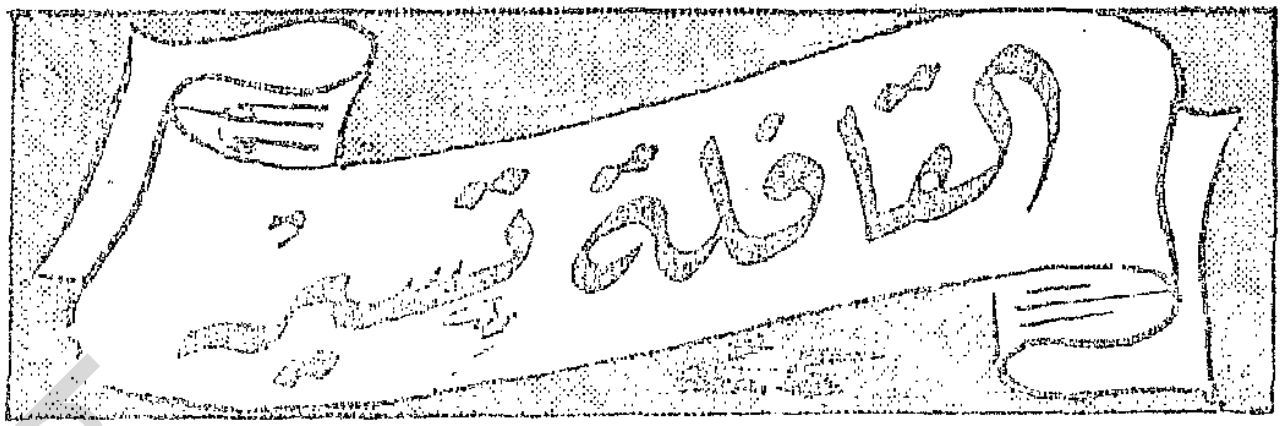

قابل سكان حارة الدرويش ببشر وابتهاج شروع مصلحة التنظيم فى نزع ملكية بيوتهم ، تمهيدا لتحويل الحارة وملحقاتها القذرة الى حى جديد يطفو الى سطح الحياة ، ويأخذ نصيبه من شعاع الشمس ونسمة الهواء ومن الاء المدنية على ابناء القرن العشرين .

ورجل واحد فى الحى ، رجل عجوز متهدم ، هو الحاج عبد الغنى السقاء تلقى الخبر بشىء من الفتور .

لقد عاش الحاج عبد الغنى فى هذا الحى سنين عاما لا يعرف سواه .

وكانت المدينة فى عينه بشوارعها الضخمة وانوارها المتلألئة وقصورها العالية عالما اخر مجهولا منه لا يفتنه ولا يغريه ، بل لعله كان يرهبه ويخشاه . وربما كانت حارة الدرويش بمشربياتها القديمة المتشابكة القائمة من ايام المماليك ، وازقتها الضيقة التى لا تتسع فى الوقت الواحد لمرور اكثر من اثنين من المشاة ، الازقة المظلمة المغلقة ذات الرائحة الكريهة ، والشتاء الموحل والصيف القائظ المكفهر بالتراب والليل الحالك الهازىء بالقناديل الزيتية المعلقة هنا وهناك على الابواب ، ربما كانت تبدو للغريب عنها مقبرة احياء ، ولكن هذه المشربيات نفسها للحاج عبد الغنى كانت الكلمة الاولى والاخيرة فى هندسة البناء

وهذه الازقة بذاتها وظلمتها ورائحتها فقدت بمضى الزمن اثرها السيىء فى عينه وانفه وتقديره ، وباتت كوطنه المقدس ، أو كمجموعة من الذكريات العاطرة تتألف منها احلامه ومطامعه وحياته ودنياه .

كان الحاج عبد الغنى سعيدا حيث هو ، راضيا بمحيطه الضيق المحدود ، شاكرا الله انه لم يقيده باهل ولا ولد ، قانعا بالرزق الضئيل الذى يواتيه من سقاية لدور .

كان سقاء الغنى الذى لاسقاء له سواه ، يطلع الفجر عليه و « القربة » فوق ظهره ويخيم الليل عليه والقربة فوق ظهره طائفا بين الدور طول النهار دون كلل ولا ملل ، يترنم بصوت منغم مقبول . « يا غنى » فلا يبقى فى الحى باب لا يفتح له على مصراعيه ولا تبقى امراة فى الحى لاتناديه ولا تحييه ، ولا يبقى زير فى الحى لا يقبل ثغر قربته بشوق وغرام ، ولا يعانقها عناق الاحباب والخلان كان يحب حارة الدرويش بعاطفة اب وام وولد ومالك ومنتفع . وكان ينغص عيشه ان يرى الاقذار والاتربة متراكمة فى احدى نواحيها فيغضب ويثور ، ويعاقب الفاعل بالحرمان المؤقت من الماء او بوضعه بصفة مستمرة فى اخر قائمة التوزيع .

وبهذا اعلن نفسه مهندسا لصيانة الحى ، كما اعلن نفسه من قبل تاجرا للماء ، وبالتالى تاجرا للحياة . وكان يستمد سعادة كبرى من رش ازقة الحى فى الايام القائظة المتربة ، بلا تكليف ولا جزاء ، شاعرا بانه يهب لوطنه هبة ، ويتصدق على سكان الحى اجمعين .

ومثل اى انسان اخر ، كانت لانانية تصنع للحاج عبد الغنى رقيه من رقى المجد توحى اليه فى ساعات انسجامه انه احد الاعمدة التى يقوم عليها الكون وانه يوم يموت سيتقوض من الدنيا ركن ، وستقف الحياة ولهى عليه تبكيه .

ومن اجل هذا كله قابل الحاج عبد الغنى نبأ التطور الجديد بفتور ، لانه ادرك ان ينبوع رزقه مهدد بالنضوب . فقد كان يعيش

من اجل يومه الحاضر لايفكر فى سواه . ولا لانه كان يخشى ان يخرج من السوق بلا نصيب . فقد كان له فى الحى كوخ لابد أن تساومه فيه مصلحة التنظيم ولكن الذى ساءه واحزنه شعوره المبهم بقرب أفول نجمه وانهيار وطنه ، وبانه مقبل على منفى .. على عالم غريب فى عينه كله مجاهل ونكرات

وذات صباح ، قصد الحاج عبد الغنى والقربة على ظهره دار المعلم عطية الجزار : فطرق بابها فلم يجبه أحد : فنادى بصوته المترنم (([illegible])) . ولكن لم يبد ان احدا اهتم كالعادة لهذا

كان الحر شديدا والحاج عبد الغنى لايعرف طريقه فى حارة الدرويش

obeikandl.com

النداء وحسب المعلم عطية قد ذهب الى المسجد ليصلى الفجر ، فدفع الباب بيده ، فاندفع امامه الباب فاعاد النداء من جديد « ياغنى » . . يامعلم عطية . . ياست ام محمود ، ولكن لا المعلم عطية ولا الست ام محمود بدا لهما اثر فى الدار ، وحتى الزير الذى كان قائما بجوار الباب لم يعد له وجود .

وخرج الحاج عبد الغنى من الدار والقربة على ظهره ، فعبر قطعة خربة من الارض الى المنزل التالى ، حيث علم من اهله ان المعلم عطية قد فارق الحى بالامس لان داره اشترتها مصلحة التنظيم

ولم يهتم الحاج عبد الغنى كثيرا لفقدان المعلم عطية كعميل فقد كان عملاؤه الباقون كثيرين ، ولا لرحيله من غير ان يسدد الخمسة القروش الباقية عليه من ثمن الماء فالحاج عبد الغنى كان لا يذكر النقود ما دام يجد السيجارة والرغيف وانما احزنه من رحيل المعلم عطية سماعه منه الدقة الاولى لناقوس الخطر القريب .

ومرت الايام والحاج عبد الغنى يتلقى كل يوم نبأ عن راحل جديد ، وكل يوم يشتد الحبل من حول عنقه عقدة ، وكل يوم تتمزق قطعة من الحجاب الذى اسدلته على الفاجعة المقبلة ، نظرته القصيرة ورضاه بالقليل .

وبدا الحاج عبد الغنى يرفع بصره الهموم من الارض وهو سائر فى الطريق ليلقيه على الربوع المحبوبة ، كأنه يتزود منها باكثر مما يستطيع من نظرات الوداع

وظهر جيش من عمال التنظيم فجأة يعملون معاولهم فى الجدران وبدأت الانقاض تتكدس اكواما فى الطريق ، وحاول الحاج عبد الغنى ان يحتج ويثور ، ولكنها كانت ثورة رجل لا يملك ان يعاقب . فسخر منه العمال وهزأوا به فتولى عنهم عاجزا لاول مرة عن الانتقام منهم لنفسه ولوطنه المحبوب .

واستوقف الحاج عبد الغنى وهو يمر ذات يوم فى حارة الدرويش ، جمع من الافندية والعمال والمساجين ، فسمع بينهم لغطا عن تركيب انابيب المجارى والنور ولكن الذى أقلقه اكثر من سواه هو اللغط عن تركيب انابيب المياه . ورأى قطعا من هذه الانابيب ملقاة فى الطريق فتمنى لو استطاع ان يحطمها بقدميه ،

obeikandl.com

وجرب ان يفعل : فأوجعته قدمه ولم تتحطم الانابيب ، ولولا انها رنت تحت قدمه رنين السخرية منه لخيل اليه انها لم تشعر له بوجود ، وكانت الصدمة قوية فسرت فى نخاعه ككرة من الثلج ، فلعن مصلحة التنظيم !

وعندما جاء مندوب المصلحة يساومه فى شراء كوخه ، رفض ان يبيعه بأى ثمن ولو مات من الجوع ورفض أن يتركه ولو دفنته الحكومة حيا فيه .. ونشأت مشكلة أمام رجال التنظيم .

ولم يكن باقيا للحاج عبد الغنى من دنياه العريضة حينئذ غير ثلاث من الدور ينقل اليها الماء بانتظام وكانت القروش التى يأخذها منها كافية بالقوة لتمده بالخبز القفار وتنسج من سجائر التبغ الردىء

والح على شيخوخته الجوع كما الحت عليها الحاجة كما الحت عليها الهموم فخارت قواه .

وبعد بضعة ايام رحل احد العملاء ثلاثة ، وخلا منزل جديد ، وبات الحاج عبد الغنى عاجزا عن شراء اكثر من احدى حاجتيه الاثنتين : السيجارة والرغيف .

وشعر بالفاجعة تقترب ... باليوم الاسود الذى لم يحاول مجرد التفكير فى الخلاص منه ببيع الكوخ للتنظيم . ومع ذلك لقى طلائع انزال القادم بصبر وثبات وايمان . وقام فى ضحى اليوم التالى فملأ الزير الاول ، ومع ان هذا كان اتفه عمل قام به فى نصف يوم من ايام حياته ، الا انه احس مع ذلك ان عرقا غزيرا يتصبب من جسده ، وان دوار الجوع مختلطا بدوار الحرمان من التبغ يذهبان بعقله وبقية قواه ، فلم يكد يفرغ القربة فى الزير حتى تولى بخطى وئيدة متعبة يفكر فى ملء الزير الثانى لعله يحصل على قرش آخر يشترى به تبغا يطامن ثورة الحرمان .

وملأ القربة ، وسار بها وعلى عينيه غشاوة ، ورجلاه لاتكادان تحملانه من فرط التعب واللغوب والدوار ، ولم يكد يصل

obeikandi.com

الى المنزل المقصود حتى وجد كالعادة ان الطير قد فارق العش بلا وداع ولا انذار .

وعاد بفؤاد مكلوم وانقربة على ظهره ، واكثر من كل وقت مضى خيل اليه ان القربة مملوءة بالرصاص ، واحس انه اصبح كالاصبع الميتة فى قدم الوجود ، واضاف الى همه وجوعه وبرده وحرمانه الغبار المتصاعد من انقاض الدور المنهارة ، واكوام الرماد المبعثرة فى الطريق .

كان الحر شديدا جدا ، والحاج عبد الغنى لايكاد يعرف طريقه فى حارة الدرويش ، وارسل عينه العشواء الى الدور المهدمة فلم يكد يراها ، وعادت اليه النظرة حسيرة غارقة فى الدموع .

وكان العمال يتفنون فى اعلى الجدران سعداء ، ولكنه لم يسمع تغنيهم ، فقد كان وعيه كله منصرفا الى الارض التى لم يعد يرى سواها ، والتى تذكر وهو منحن عليها انه لم يسقها منذ اسبوع .

خيل اليه ان الارض ظمأى ، واحس انها تناديه ، وكانما كان يسمع فى حشرجة احتضارها صوت قلبها الظامىء المحطم يطلب الماء .

وبغير ارادة منه انحلت اصابعه المعروقة عن فم القربة ببطء . فتساقط ماؤها كله ، فابتلعته الارض بنهم فى الشبر الذى سقط فيه ، فتمزق قلبه من الاسى ، وتقاطرت دموعه على الارض ، ولكنها هى الاخرى ضاعت بين حبات الرماد .

ومرت فى هذه اللحظة عربة يجرها بغلان من بغال التنظيم ، فرشت من الارض فى لحظة واحدة ماكانت ترشه قربة الحاج عبد الغنى فى بضعة ايام . ولاول مرة أدرك الحاج عبد الغنى وهو يتبع العربة ببصره الكليل انه ذرة فى الوجود لاقيمة لها مثل اى مخلوق ولكنه مع ذلك بارك الغيث الذى يسقى رفات وطنه المحبوب

وتصايح العمال به وكانوا يدفعون جدارا متداعيا ، عندما رأوه واقفا كالصنم الهشم ، ان يبتعد عن مسقط الركام

المنهار ولكنه لم يسمع صياحهم فقد لمح بجوار الجدار المتداعى كهفا من كهوف السجاير وافنما من احد العمال .

واندفع اليه بجنون كالذى عثر على كنز ، ولم تكد تصل اليه يده حتى انقض الجدار فطمره تحت الانقاض، ووجدت جثته والقربة بين ذراعيه كأنما كان يحميها من الاخطار

ولم يشعر بفقدانه احد فى الدنيا الا مصلحة التنظيم التى انحلت لها مشكلة الكوخ من أوسع الابواب وسارت قافلة الحضارة فى طريقها بعد ان تخلصت من اصبع ميتة فى قلبها الشمال ...